مكتبة المقتطف

بعث الشعر الجاهلي

نقد كتاب من تأليف الأستاذ مهدي البصير : بغداد

جاءني بريد العراق فطالعني من بينه ذلك الكتاب الطريف « بعث الشعر الجاهلي » تأليف الأستاذ الدكتور مهدي البصير من خيرة أدباء بغداد ، ومن زعماء الكتابة في العراق الشقيق ، وقد كان زميلاً لأديبنا المصري الكبير الدكتور طه حسين بك ، ونال مثله شهادة الدكتوراه من السوربون ، وقصة ذلك أن كتاب الدكتور طه « في الأدب الجاهلي » وقع بيد الدكتور البصير فقرأه — كما يقول — أولاً قراءة سطحية سريعة ، ثم عاد فدرسه بتدبر وإمعان ، فخالف الدكتور طه في كثير مما ذهب إليه بشأن الشعر الجاهلي وإنكاره ، فهبّ لرد آرائه ونقض مزاعمه ، وكان من ذلك كتاب سماه أولاً « الأدب العربي قبل الإسلام » ثم تقدّم به على شكل أطروحة أدبية الى السوربون ليحصل على درجتها العلمية وشهادتها الأدبية ، ولأن المستشرقين مهما قيل في مدحهم والإشادة بأثرهم وفائدتهم للعرب والعربية لا يخرجون عن كونهم أصحاب أطماع ومآرب تنفع قبل كل شيء أشخاصهم وأوطانهم ، ماكسوا الدكتور البصير ونالوا من قيمة أطروحته ، ووضعوا في سبيله العراقيل والعقبات ، خصوصاً وأن البصير كان يتبع عقيدة سياسية تخالف نوايا الفرنسيين الاستعمارية وتحارب جشعهم المتأصل وتدخلهم الوضيع في شئون العرب والشرقيين ، فما كان من أديبنا العراقي النابه إلا أن تحدّى تلك الطائفة ، وأرغمهم على الاعتراف بمكانته وعصاميته وعبقريته وذلك باجتهاده في تعلم الفرنسية والكتابة بها ، حتى غدا كفرد من أبنائها ، ووضع بها أطروحة قدّمها أيضاً الى السوربون ، فلم يجد رجالها بدّاً من إجابته إلى ما أراد ، ورجع

البصير إلى بلاده وهو يحمل وثيقة انتصار الشرق أمام الغرب ومنافسة أبناء يعرب لأبناء أوربا!...

أما الأطروحة العربية الأولى فقد قام الاستاذ البصير بإلقائها في فترات مختلفة على شكل محاضرات بالاذاعة اللاسلكية العراقية، بدون أن يرسم لها خطة أو يحدّد لالقائها مواعيد، وإنما كان يعد كل محاضرة منها عند طلب إلقائها. ولما رآها في النهاية قد تسلسلت واشتبهت وارتبطت في موضوعها وغرضها، أقبل على بعضها بالتهذيب، ثم انتهى الى نشرها في كتاب مستقل، هو الذي أتحدّث عنه في هذه الكلمة، وسماه « بعث الشعر الجاهلي »...

ومن اسم الكتاب تستطيع أن تفهم أن موضوعه هو البحث في الشعر الجاهلي، — خصوصاً المعلقات السبع — وإثبات حقيقة هذا الشعر، ووجود قائليه في الحياة يوم قيل، والاشادة بما في هذا الشعر من خصائص وميزات وروائع من حق العربية أن تفخر بها وتزهو..

وأنت إذ تتناول هذا السفر يعجبك منه طبع متقن وتبويب منظم وتفصيل موضح، مما يدلك على النهضة الكبرى التي بلغتها الطباعة العراقية في هذا العصر، فاذا قلت لك إن كتاب الشعر الجاهلي في مظهره ومخبره، وصورته ومعناه كأحسن ما نشاهد ونقرأ من الكتب المصرية تصدقني لأني لا أبعد لمتشكك عن الحقيقة والواقع!..

ومع إعجابي بالمجهود الطيب الذي بذله الدكتور البصير في كتابه ألاحظ عليه أنه مال الى الايجاز الذي أراه مبالغاً فيه في بعض المواقف، وما كان لأديب يتناول البحث عن الشعر الجاهلي وقيمته وحقيقته في كتاب سائر أن يختصر القول في ذلك أو يجمله، بل إن المقام خليق بالاطناب والاسهاب — كما يعبر البلاغيون — خصوصاً وأن هذا الموضوع — موضوع الشعر الجاهلي — قد كثرت الأقاويل فيه والترهات حوله، وتراكت الشبهات والظنون عليه، فحقّ على اديب ذي كفايات وميزات كالبصير أن يبسط لنا القول في هذا الموضوع بسطاً ويفصله تفصيلاً، حتى يحق الحق ويبطل الباطل ويفند المزاعم ويزيل الشكوك. وقد قدّمت أن الدكتور البصير تناول في كتابه الرد على الدكتور طه حسين، فكان المنتظر أن يكون حجم الكتاب ضخماً كبيراً، ولو على الأقل مثل كتاب المرحوم مصطفى صادق الرافعي « تحت

راية القرآن » أو كتاب الاستاذ محمد احمد الغمراوي « النقد التحليلي » أو كتاب الاستاذ محمد احمد عرفه ، أو كتاب الاستاذ محمد فريد وجدي . . فهذه الكتب الاربعة قد وضعت للرد على الدكتور طه ، وبعضها قد اختص بتفنيد رأي خاص في مسألة خاصة ، وبعضها عمم الرد على الكتاب وتناول ما تناول ببسط وإفاضة وإيضاح ، ولعلّ الدكتور البصير يطلع على ما ذكرنا ما كتب — أو لعله اطلع — فيقدم على تنقيح كتابه والزيادة فيه ليطبعه طبعة جديدة تذيع وتروج ! . .

والكتاب بعد هذا يتكوّن من ثماني محاضرات ، تكلم الدكتور في الاولى من امرىء القيس وتاريخه ومعلقته ، وأثبت وجود الشاعر التاريخي وصحة نسبة شعره إليه ، فكان مع ايجازه موفقاً ، وجادل الدكتور طه حسين بالتي هي أحسن ، وحاوره الحوار الجميل ، حتى انتهى إلى نقض آرائه وإثبات الحقيقة ، ولكن أدهشني قول الدكتور البصير في (ص٢٣) من « قفا نبك » : إنها تمتاز برغم بداوتها بقلة الغريب وسهولة التعبير » وفي ص ٢٤ يقول : « وهي لا تضطرنا في كثير من الاحيان لاستشارة المعاجم اللغوية » ! !

أرجو أن يسمح لي الدكتور بمخالفته في هذا الرأي ، فإننا إذا أخذنا القارىء المتوسط مقياساً لنا ، وهو ما يجب أن يكون ، رأينا أن قصيدة « قفا نبك » تحوي الكثير من الألفاظ اللغوية الغامضة التي تستعصي على ذلك القارىء المتوسط ، وإليك من القصيدة — مثلاً — هذه الكلمات : « مقرات ، تاقف ، ريا ، كورها المتحمل ، هداب ، الدمقس المفتل ، جناك المعلل ، آليت حلفة ، أعشار قلب ، خبت ذي حقاف عقنقل ، بفودي رأسها ، هضيم الكشح ، ترائبها ، السجنجل ، القانقاة ، نصته ، أثيث كقنو النخلة المتعثكل ، مستشزرات ، العقاص ، كشح ، الجديل ، أساريع ظبي أو مساويك اسحل ، اسبكرت ، المجل منجرد قيد الأوابد هيكل ، الكديد المركل ، خذروف ، أيطل ، إرخاء سرحان ، الكنهبل . . الخ »

ألا يرى الدكتور في هذه الكلمات التي ذكرناها — تمثيلاً لا استقصاء — غرابة وتسامياً عن الأذهان المتوسطة ؟ ألا يحتاج القارىء الى استشارة المعاجم بشأن هذه الالفاظ ؟ . .

ان من أكبر الدلائل على كثرة الغريب في « قفا نبك » وحاجتنا الى المعاجم في فهمها هو قيام الكثير من أهل اللغة بوضع الشروح المتعددة المبسوطة في شروحها وتفسير كلماتها ، وان

القارىء لقصيدة « قفا نبك » لا يجد بها إلاَّ ما يقرب من عشرين بيتاً — مع أكثر تقدير — لا تحتاج ألفاظها الى شرح معاجم ، والباقي عسر الفهم غامض المعنى !.

وفي ص (٢٥) أشار الدكتور الى ميزة لامرىء القيس وهي عنايته بضبط المواقع والأمكنة ، والراجح عندي أن هذه خلة شائعة عند العرب ، فما من شاعر عربي أصيل في عربيته إلاَّ ويعنى بتحديد الاماكن سواء في شعره أم نثره ، وظني أن ذلك ناتج من تشابه الأماكن في جزيرتهم واتساع صحرائهم وعدم قيام المدن والدساكر التي تميز المواضع وتبين الأماكن ، ولذلك يعلم المتحدّث أن المكان الذي يقصده ويعينه في كلامه لن يُعرف إلاَّ إذا حدَّده بحدود ومعالم ! ..

وقد زعم الدكتور أن الشطرة الثانية من بيت امرىء القيس :

ويوم عقرت للعذاري مطيتي فيا عجباً من كورها المتحمل

جيء بها نزولاً عند ضرورة العروض والقافية فقط ، إذ لا غرابة في حمل كور مطية معقورة على غيرها ... ونرد على الأستاذ زعمه فنقول :

إن هذه الحالة مما تستدعي العجب ، فامرؤ القيس قد أقبل في الصباح على مطيته وهي أقوى ما تكون ، ولكنه نزل على إرادة الجمال والحب فعقر مطيته وشوى لحمها للعذارى ، وعند رجوعهنَّ تقسمَ متاع مطيته ، فكأنه قال : يا عجباً ، أغدو في الصباح ومعي ناقتي التي أعروها وأحتاج إليها ، ثم أؤوب وقد فقدتها وتقسمت العذارى كورها ؟ !.

وفي المحاضرة الثانية تكلم الدكتور عن زهير بن أبي سلمى وعن معلقته ، فنوَّه « بالواقعية » فيها وعدم تهويله في مدح أو وصف ، وعمق تفكيره وبحثه في حالة المجتمعات وما يلزم لسلامتها وتقدمها ، وتبشيره من أجل ذلك بالسلام ، وإكثاره من إرسال الأمثال السائرة والحكم البليغة ، وإذا كنت قد خالفت الدكتور في ألفاظ « قفا نبك » من جهة الوضوح والغرابة ، فإنه لا يسعني إلاَّ موافقته على قوله إن زهيراً كان دمث اللغة سهل التعبير ، وفي الحق إنك لا تقرأ معلقة زهير كلها أو أكثرها إذا أردت الدقة في القول فتجد معاني الأبيات تنساق إلى ذهنك انسياقاً والألفاظ تخطر معانيها ببالك جلية بلا استئذان .

وفي ص ٣٥ أورد الدكتور لزهير هذا البيت :

تداركتما عبساً وذبيان بعد ما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

وتوقعنا منه أن يشرح عبارة « ودقوا بينهم عطر منشم » فقد اضطربت في شرحها الأقوال ، ولكنا وجدناه يحيلنا على موضع لا نعرفه — لأنه لم يأت بعد — بقوله : « راجع البحث عن الأسلوب » ونذهب نفتش عن هذا الموضع الذي شرحت فيه هذه الجملة فلا نجده إلاَّ في (ص ٤٥) أي بعد عشر صفحات ، وأظن أن في ذلك إبهاماً على القارىء وبلبلة لذهنه .

***

ويقول الدكتور إن جملة « ودقوا بينهم عطر منشم » معنى زائد يتم المعنى المراد بما قبله ، ولكنني أحب أن أقول له : ألا يصح أن يكون ذلك من باب « الإيغال » وتمكين المعنى في ذهن السامع ، وذلك كقول الخنساء :

وإن صخراً لتأتم الهداة به كأنه علمٌ في رأسه نار !

وقول المتنبي :

وما الدهر إلاَّ من رواة قصائدي إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا ؟

ويذكر المؤلف قول زهير :

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غدٍ عم

ويعقبه بقوله : « يعلن الشاعر أنه يعرف ماضي الحياة وحاضرها لأنه رآها ، ولكنه يجهل مستقبلها ، أي أنه لا يؤمن بالبعث ! .. » . ونحن نسائله : كيف استنتجت عدم إيمان الشاعر بالبعث ؟ . أعدم معرفته للمستقبل يشعر بانكاره للبعث ؟ . ألاَ يصح أن يكون المعنى : إنني أجهل ما يأتيني الله به في قابل أيامي ، أيكون ذلك خيراً أم شرّاً ، لأنني لم أعط علم الغيب ... فيكون البيت دليلاً على الإيمان لا على الكفران !؟ . .

وفي المحاضرة الثالثة تكلم الدكتور عن معلقتي عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة اليشكري ، فأجاد القول وأحسن التحليل ، إلاَّ أنه يقول عن غلو ابن كلثوم في الفخر إنه « صورة صادقة من أنفة البدوي وإبائه ونخوته ... » ولست أرى رأيه ، بل إن السبب في هذا الغلو هو أن ابن كلثوم في موقف خصام ومنافسة ومناخرة ، فهو يستعمل لسانه

ونصاحته في دفع التهم عنه وتمداد المفاخر — ولو كانت كاذبة — لخصمه ، وإلاَّ فأكثر فخر ابن كلثوم لا يكاد يعقل ! …

وأنا مع الدكتور إذ يقول في (ص ٥٨) عن مطولة ابن كلثوم « فلقتهـا موسيقية جذّابة » . إذ أنها موسيقية في بحرها ، فبعض البحور أقرب الى النفس والحس وأسهل على اللسان وألصق بالشعور من بعضها الآخر ، وكذلك لبعض الالفاظ نغم ورنين لا يوجد في بعضها الآخر ، ومن أراد أن يعرف ذلك فليقرأ على التوالي معلقتي ابن كلثوم وامرىء القيس ليفهم ما ذكرناه ! .

ويقول الدكتور (ص ٥٩) : « يظن زميلنا الاستاذ طه حسين أن سلاسة اللفظ في معلقة ابن كلثوم دليل على انتحالها بعد الاسلام ! ولكنه يخطىء في هذا بعض الشيء ، فلغة القرآن الكريم لا تقل سهولة ودماثة عن لغة هذه المعلقة ولم يفصل بينهما قرن » .. ولست أدري قيمة الحجة التي احتجّ بها الدكتور البصير هنا ، فما أثر الزمن في السهولة والغموض ؟ .

***

ألاَ يصح أن يجتمع شاعران أو كاتبان في زمن واحد وبيئة واحدة ، ومع ذلك يأتي نتاج أحدهما غريباً غامضاً عسراً ، والآخر سهلاً ظاهراً ؟ . لقد أورد المؤلف نفسه أمثلة لذلك في (ص ٦٢) من كتابه وحسبه بعد ذلك أن يقارن مثلاً بين أدب مصطفى صادق الرافعي ، وأدب زكي مبارك، وهما من أبناء عصر واحد وبينهما بون شاسع ! ! . .

وفي المحاضرة تكلم الدكتور عن عنترة العبسي وعن تاريخه وقصته ، فقال إن كثيراً من الأساطير دخلتهـا ، خصوصاً في زمن العزيز على يد أديب مصري يدعى يوسف ، وقال ان كثيراً من الشعر المنسوب لعنترة في ديوانه دخيل غير صحيح النسبة ، وزعم أن عنترة كان غير مخلص في حبه ، ولكنه أجاد في فخره وتحدثه عن شجاعته وكرمه ، وتحتوي معلقته على شذرات جميلة تكفي بحيويتها وجودة ألفاظها أن ترفع عنترة إلى مصاف أكابر الشعراء ! ! . .

ولم يتكلم الدكتور عن معلقة طرفة ابن العبد ومعلقة لبيد ابن ربيعة ، وقد ذكر ضمن مراجعه كتاب « القصائد العشر » . أفما كان يجدر به أن يتحدث عن القصائد السبع

المتيقن أنها معلقات بله أن يتحدث عن القصائد الثلاث المكملة للعشر التي اختلف في أنها من المعلقات أو ليست منها ؟ . .

وفي المحاضرة الخامسة تكلم عن أطروحته الأدبية العربية والفرنسية وقد أشرت إليها في أول الحديث ، ثم حاول إثبات الشعر الجاهلي فرافقه التوفيق في أكثر خطواته ، وجرح الرواة الذين قيل عنهم إنهم أنشئوا المعلقات ، مدللاً من شعرهم وتاريخهم على أنهم من الخسة بحيث لا يستطيعون النهوض بمثل هذا العمل الجليل ! . .

وفي المحاضرتين السادسة والسابعة تحدَّث عن قيمة الشعر الجاهلي من النواحي الأدبية والاجتماعية والفنية ، فأشار إلى الطبيعة في شعر الجاهلية وإلى اللهو ، وأثر المرأة والهيام بها ثم برَّز فخر ابن كلثوم ، واستحسن فخر عنترة ، وأعجب بفخر عارفة ، وأشار إلى ما في المعلقات من نواحٍ فلسفية ولمح الى خصائصها الفنية ، وعاد في النهاية الى ذكر الشبه بين المعلقات والقرآن ، وانه لمن الجرأة أن نعقد مقارنة بين كلام الله العزيز الحكيم وبين كلام البشر مهما كان ! .

وفي المحاضرة الثامنة تحدَّث عن الشعر الغنى كما يتصوره ، وعنده « أن القصيدة الفنية وحدة بيانية تظهر فيها قدرة الشاعر على الابتكار وتراعى بها وحدة الموضوع وجودة ترتيب الفكر ، والتئام العروض والموضوع الى حدٍّ ما ، وحرية القافية . . . »

وذكر لنا الدكتور أمثلة من الشعر الغنى القديم ، كما أسمعنا شيئاً من شعره الغنى الحديث ، فأعجبنا بشعره كما أعجبنا بنثره ، ولكني أرى الرابطة بين هذا الموضوع وبين باقي فصول الكتاب واهية ضعيفة ، فما صلة الشعر الجاهلي بالشعر الغنى كما يتصوَّره الكاتب ؟ ! .

وهناك جملة أخطاء املائية لا ملام على الدكتور فيها ، فقد علمت انه يملي ولا يكتب ، فالعتب في ذلك يتوجه الى كاتبه .

وكتاب « بعث الشعر الجاهلي » رغم ما ذكرت فتح جديد في الأدب العراقي ، وإن شئت قلت انه سفرٌ قيم في المكتبة العربية ، وإن حقاً علينا أن نتوجه الى الدكتور مهدي البصير بأطيب الثناء وأجزل الشكر ان ، راجين أن يواصل جهاده بنشر آثاره والله ولي التوفيق .

احمد الشرباصي
مدرس كلية اللغة العربية